دور أدب الرحلات
في نشر ثقافة الخوف من الإسلام في الغرب

د. محمد عبدالمجيد حسنات
قسم اللغة الفرنسية- كلية الآداب- الزاوية
جامعة الزاوية

مقـــــدمـــــة:

إن تهكم الصحافة الدنماركية من شخص الرسول الكـــريم -عليـــه الصــــلاة والســــلام- ووصف رئيس الولايات المتحدة الأمريكية "جورج بوش الابن" المسلمين بالفاشيين والإرهـــابيين ودعوته لحرب صليبية جديـــدة، وخطـــاب بابـــا الفاتكـــان بنـــديكت الســـادس عشـــر بتـــاريخ 2006/09/12، الذي ادعى فيه "أن الإسلام قام على حد السيف وأن تعـــاليم محمـــد تتعـــارض وإرادة الرب"، كل هذه الأسباب وغيرها دفعتنا إلى البحث العميق عن جذور هذه الصور السلبية

للإسلام، والتي –وكما سنرى– لم تتغير، بل جاء كل عصر ليؤكدها مرة باسم الدين وأخرى باسم العلم والمنطق وثالثة باسم الوصاية، واليوم باسم الديمقراطية ومحاربة الإرهاب.

إن التركيز على دراسة كتب الرحلات في القرن السابع عشر الميلادي ليس وليد الصدفة؛ لأن القرن السابع عشر شهد اهتماماً منقطع النظير بالرحلة إلى الشرق. فلو استعرضنا ما كُتب حول الشرق باللغة الفرنسية في القرنين السابع والثامن عشر، للاحظنا دون شك الطفرة التي سجلتها كتب الرحلات إليه بعد العام 1660. فقد كان يصدر في فرنسا وحدها بمعدل كتاب رحلة كل عامين حتى نهاية العام 1660. ثم كتاب واحد كل سنة واستمر ذلك حتى نهاية القرن. ووجدنا أنه من بين 180 كتاب رحلة ظهرت ما بين 1599 و 1700، أن أكثر من نصفها ظهر بعد العام 1650. هذا التهافت نحو الشرق يجيب عن حاجة القارئ الفرنسي الملحة لمعرفته والاطلاع عليه، فالقارئ لا يمل من الشرق كمادة للقراءة. فضلا عن ذلك فانه من خلال تصفحنا لكتب الرحلات، وجدنا أن هناك تجانسا بينها من حيث الصورة التي تعطيها للشرق، ولاحظنا كذلك تجانسا بينها وبين كتب الرحلات التي ظهرت لاحقاً في بداية القرن الثامن عشر. والتي –أي الأخيرة– تقترب وبشكل لافت من نمط ونهج النصوص التي ظهرت في نهاية العصور الوسطى وعصر النهضة.

ولبيان إطار البحث وفرضيته المركزية، فلا بد من إيضاح مسألتين متعلقتين بطبيعة هذا البحث وأهدافه:

المسألة الأولى: إن جميع كتب الرحلة التي سيتناولها هذا البحث غير معربة أي بلغتها الأصلية وهي اللغة الفرنسية، وقد قمنا بتعريب النصوص المقتبسة منها مع التقيد بالنص الأصلي.

المسألة الأخرى: إن قراءة مسألة الخوف من الإسلام في كتب الرحلات، تنتمي إلى سياق الدراسات المقارنة الحديثة إلى ما يعرف اليوم ب"الصورية"، كفرع يهتم بالتصورات التي تقدمها وتبثها الكتابات الأدبية عن المجتمعات والثقافات الأخرى في لحظة اتصالية ما [1] . من هنا

تحديداً تنفتح "الصورية" بالضرورة على "فكر الاختلاف" الذي ســاهم ويســهم نقــاد متميــزون كإدوارد سعيد و تودوروف، تمثيلاً لا حصراً، في بلورة أطروحاته وأدواته النظرية [2]. فعنــدما ندرس هذه "الصورة"، فإننا غير متمسكين بتحديد الواقع الذي تغطيه، فصحتها أو عدمها مــرتبط بشكل مباشر في نظرة المختصين بالتاريخ وعلماء الأجناس وعلم الأديان. ومما لا شك فيــه، أن هذه الصورة للإسلام بعيدة كل البعد عن الواقع الذي تدّعي كتب الرحلات إلى الشرق إظهارهــا وتقديمها للقارئ الغربي بصورة لا تتفق والواقع.

لقد بنيت أول صورة للإسلام في الغرب على علاقة صدام بدأ في العصور الوسطى[3] من معركة بواتييه، حدث أسطوري، إلى الحروب الصليبية، ظهرت رؤية جدلية للعدو السياسي- الأيديولوجي ثم للكافر. بدأ أول فتح للإسلام للأراضي الأوروبية بين 715 و 720، عندما فتحت الجيوش الإسلامية الأراضي الإسبانية واجتاحت جبال الألب. منذ ذلك التاريخ تشكل في الوعي الغربي صورة الشرقي المسلم كمحارب وقاطع طريق، لكن بدون ذكر لديانته. بل وبالعكس، نظر إلى هذا الغازي كانسان كافر ومشرك لا يمت بصلة لأي ديانة موحدة. فكم هو لافت للنظر أن نلاحظ أن هذه الصورة البدائية ما زالت إلى يومنا هذا، وأنها طبعت العلاقة بين المسلمين وغيرهم وفقاً لذلك. وفي إسبانيا المسلمة طفا هناك على السطح البعد الديني وبدأت تتشكل رؤية للإسلام ضد المسيحية. فتحولت الأركان المشتركة للديانات السماوية الثلاث إلى رؤية تهدف إلى حبس الآخر في صورة مغايرة، ورفده على هوامش الحضارة. فليس من الممكن أن يكون المسلمون أبناء لإبراهيم مثل المسيحيين.

لا تقوم هذه العلاقة على اختلافات دينية فقط، بل وأيضا على تنافس سياسي[4]. بدأ "استشراق الشرق" كما يسميه إدوارد سعيد، بأزمة الضمير الأوروبي المتصل بانفجار المدينة الحديثة. حملت هذه الحداثة في طيها الرغبة في مصير ثقافي وسياسي خاص ومعارض لنظيره العثماني. في تلك الأثناء، ساعد المرور عبر الدول الأخرى في تعلم النسبية والتي هي مفهوم

شائع لدى فلاسفة عصر التنوير. نظمت الرحلة (حقيقية أم خيالية) العلاقة مع الآخر البعيد، وساعدت في اكتشاف الذات وفي جعل بلاد الإسلام كوعاء لعصر التنوير.

ثقافة الخوف من الإسلام في أدب الرحلة إلى الشرق:

1. حجاج الأرض المقدسة أو الأتقياء العمي:

إن تراجع الأخطار التي كانت تحيط بقوافل الحجيج القادمة من أوروبا في العصور الوسطى كان أحد الأسباب الرئيسة لقدوم أعداد كبيرة من الحجاج المسيحيين إلى الشرق في القرن السابع عشر.

في العام 1517 عندما استعاد السلطان سليم الأول فلسطين، وضمها إلى الإمبراطورية العثمانية أصبحت جزءاً منها. وأعطى الطوائف المسيحية في الأراضي المقدسة حرية إدارة أماكنهم الدينية فيها. لكن تعدد هذه الطوائف كان عاملاً للخلاف فيما بينها.

إذن يجب قراءة أدب الرحالة الفرنسيين إلى الشرق في ضوء الصراع بين الطوائف المسيحية فيما بينها لإدارة أماكنها المقدسة من جهة، وصراعها مع الإمبراطورية العثمانية التي هي في أوج قوتها من جهة أخرى.

لكن لا بد من الإشارة كذلك إلى وجود ظاهرة شائعة عند رجال الأدب في القرن السابع عشر والتي لا يستثنى منها أدب الرحلات – موضوع الدراسة– ألا وهي ظاهرة السرقات الأدبية والمجاملات. فكل ما يتعلق بالإسلام مأخوذ عن بعض النصوص المعروفة والتي تعد قاعدة معرفية مثل كتابات (ميشل بوديي) (Baudier) (1590- 1645) حول هذه النواة الصلبة، كتب الرحالة كتبهم، وكانوا لا يفتأون عن الادعاء من أن رحلاتهم، خلاقة وتحمل كل ما هو جديد وان كانت في واقع الأمر بعيدة كل البعد عن كل ما هو جديد وخلاق. فالإبداع والتقوى والورع كلمات تتكرر أكثر من ألف مرة داخل النص، فواقع هذه النصوص أنها لا

تحتوي على ما يبهج ويسر الخيال، لكنها على أقل تقدير تقدم ما ينتظره منها القارئ الغربي المتعطش إلى ما يقوي إيمانه وثقته بديانته.

في هذه الدراسة سوف نعرج سريعاً على ثلاثة نصوص تمثل أفكار وانطباعات الرحالة من رجال الدين والتي هي:

1. "الحاج التقي أو الرحلة إلى القدس" للأب (بيرناردان سوريوس) (Bernardin Surius) (1666)[5].
2. "تاريخ ورحلة إلى الأرض المقدسة" للأب (جاك قوجون) (J. Goujon) (1671) [6].
3. "رحلة جديدة وصادقة جداً إلى الأرض المقدسة" للأخ (فيليكس بوجراند) (Félix Beaugrand) (1700) [7].

لا نهدف إلى تحليل هذه الرحلات بشكل مفصل وإنما نهدف إلى التعرف على العقلية التي تحرك علاقة الرحالة بالإسلام وثقافة الخوف التي تبثها هذه الكتب لدى القارئ الغربي [8]. مما لا شك فيه أن هذه العلاقة لا بد إلا أن تكون عدائية وصدامية، لأن الرحالة يعدون أنفسهم الورثة الشرعيين للأماكن المقدسة. من هذا المنظور، يعلن الأب (قوجون) في مقدمة كتابه أن:

" سام هو أول مالك للأرض المقدسة، وورّثها بعد الطوفان للذين حافظوا على نهجه. لكن وللأسف نرى اليوم أن هذه الأرض المقدسة، التي هي أرض الكرامات، في أيدي الأتراك والعرب والبربر واليهود الذين جعلوا من بلادنا الأكثر قدسية بابل الإهانات. سوف يدنسها هؤلاء أكثر فأكثر إذا لم يتحرك رجال الدين الذين تحت قيادة فرانسوا لتحريرها. لقد أوكل إليهم المسيح حماية هذه الأرض المباركة منذ ولادته وأثناء حياته وبعد مماته، لأنهم الوارثون الشرعيون لآلامه، لقد ألقى على عاتقهم أمانة أكثر الأشياء الغالية على قلبه فوق هذه البسيطة"[9].

مفردات هذا الخطاب تغطي حقلين لغويين مختلفين وهما الملكية الذاتية والطُّهر. وبذلك يضع الرحالة وجهاً لوجه الوارثين الشرعيين والطاهرين في كفة، والمغتصبين والفاسدين في كفة أخرى، وكفيل هذا الطهر وهذه الشرعية هو المسيح. فالأتراك والعرب لا يملكون مرجعية صادقة، ووجودهم حادث عرضي ورؤيتهم إهانة وتكدير للنظر. فالرحالة لا يلاحظ وجودهم إلا عندما تكون علاقته معهم علاقة تحد. هكذا دوّن الأب (بوقراند) امتعاضه من وجود الأتراك على باب كنيسة القديسة بيلاجيه في فلسطين؛ لأنهم منعوه من الدخول إليها؛ لأنها حولت إلى مسجد، لكنه يستشف برضى من أن مدخل كنيسة المهد في بيت لحم صغير ومنخفض جداً؛ ليمنع دخول الأتراك إليها على حميرهم ودوابهم (10). وأحياناً أخرى تتدخل العناية الإلهية لتحقيق العدالة لهم. في هذا السياق يروي الرحالة (قوجون) للقارئ قصة ابن الباشا الذي أراد بناء إسطبل للخيل في بيت لحم عام 1618، لكن "قبل وضع الخيول فيه وبفضل عقاب الهي وجدت جميعها ميتة" (11). فالمعجزة تظهر هنا بقلم رجل دين ساذج، وهذا ليس بالشيء المستغرب؛ لأن الأرض المقدسة هي أرض المعجزات، وبهذا الثمن فقط يستطيع رجال الدين تقليل الوجود الدائم للمسلمين فيها، فالله هو الذي يتكفل بعقابهم من وقت لآخر. فالإسلام يستخدم هنا كوعاء مظلم وآسن يظهر من خلاله من وقت لآخر بريق وصفاء الديانة المسيحية.

كل هذا يعني أنه لن يكون هناك خطاب عن الإسلام في كتب رحلات رجال الدين. فكتاب الرحلة الوحيد الذي خصص للإسلام مساحة واسعة نوعاً ما هو كتاب الأب (سوريوس) وإن لم يكن –كما سنرى– سوى إضافة متصنعة وسطحية. لقد دوّن هذا الرحالة انطباعاته عن الأماكن المقدسة من زاويتين:

الأولى : التاريخ المقدس، والثانية تاريخ الحروب الصليبية، فالتاريخ المعاصر لهذه الأماكن لم يمر عليه الكاتب سوى مرور الكرام كما هو الحال في كتاب الأب (قوجون). لم يتطرق هذا الأخير للمسلمين في كتاب رحلته، بالرغم من أنه –وحسب اعترافه– أقام عامين في القدس

والناصرة وبيت لحم، وعاماً ونصفاً في مصر وسوريا، وأهدى كتابه للعذراء مريم وقسمه إلى 33 زيارة، تيمناً بعمر المسيح عليه السلام. فلا يحتوي كتابه سوى على فقرتين مخصصتين لهم والتي يتحدث فيهما عن الأسواق وعن مساجد حلب وعن لطف أهلها وحسن ضيافتهم.

لا يبدو (بوجراند) أكثر إسهاباً من أقرانه، فقد أشار أثناء مروره عبر بلاد الإسلام أن الأتراك " جبناء [12] وأن العرب وإن كانوا صادقين في معاملاتهم فإن هذا الأمر ورثوه عن بطارقة المسيحيين القدماء [13]. هذه النظرة الضيقة للأمور تبدو ظاهرة شائعة لدى الكتاب والتي تظهر العرب وكأنهم غير صادقين، فالكاتب يمنحهم شكل بطارقة المسيحيين، فهكذا نجد الشكل والحقيقة، فرجل الدين المسيحي يرمز بذلك إلى الماضي، وإلى الحقيقة في أماكن سكنها يعقوب وإسحاق. فالكاتب لا يذهب بعيداً في وصفه، ويكتفي بوصف جمال مسجد قبة الصخرة [14]. أما فيما يتعلق برحلة الأب (سوريوس) والتي هي في مجملها مخصصة للأرض المقدسة فإننا نلاحظ أنه لم ير المسلمين هناك. فلم يخصص لهم سطراً واحداً في رحلته، فتفكيره مركز على السير على خطوات المسيح فقط، فالإسلام لا يظهر في رحلته بشكل طبيعي ولكن بشكل مصطنع ومعد مسبقاً، وإن كان قد خصص له 90 صفحة [15]، أي بواقع 20 باباً فإنها تبدو مصطنعة ومضافة إلى الكتاب. هذا الوصف للإسلام جاء على شكل مقتطفات من الكتب التي نشرت من قبل. فالكاتب يعترف في مقدمة كتابه أنه استعان بكتب الرحالة الذين سبقوه. ففيما يتعلق بصورة الديانة الإسلامية في كتاب هذا "المقتبس التقي"، فان الصورة الوحيدة التي يعطيها للأتراك ظهرت في إطار وصفه للإسلام، الأمر الذي وضع وبقوة عيوبهم وفضائلهم في قلب تبريرات دينية:

"الأتراك كسالى لا يحبون العمل، وهم متطيرون ويؤمنون بالخزعبلات فهم نتاج ديانتهم، والخصلة الحسنة الوحيدة التي يمكن أن نجدها فيهم هي حبهم الإنفاق في سبيل الله" [16].

صورة الإسلام في كتاب رحلته تبدو غامضة وفضفاضة، غارقة في عدم الاكتراث المطلق تجاه المسلمين "المغتصبين" لأرض المسيح. الصفات السلبية التي ألحقت بالمسلمين ليست جديدة وهي بعيدة عن إظهار خصائص الإسلام الحي والحقيقي.

أظهرت دراسة رحلة الرحالة الحجاج إلى الأرض المقدسة أن هؤلاء الرحالة لا يعبأون بوجود الإسلام هناك، فهم يزورون أرضاً أسطورية، تستمد اسمها ووجودها من النصوص المقدسة، فالذاكرة تظهر كمسوغ للرحلة وكمحرك لها، فالرحالة يضع قدمه على أثر أقدام المسيح ليكسب رضاه. بالنسبة لعامل الزمان، فالماضي هو الإطار الذي يتحرك فيه الرحالة-الحاج، أما الحاضر- الذي هو الحقيقة الدامغة- فلا وجود له، لأنه يجسد الحقيقة المرة والمبهمة التي لا تطاق وهي سيطرة المسلمين والأتراك. فالرحالة عاجز عن رؤية هذا الواقع والتمعن فيه فيغمض عينيه حتى لا يراه.

2. الرحالة الفضوليون:

نشر في العام 1660 رحلتين في غاية الأهمية لكل من (فيرمانيل) [17] و(بولي) [18]، لأن الهدف منهما كان التجوال وحب المعرفة وينتمي كاتباها إلى الطبقة المثقفة. لقد استطاع هذان الرحالان أن يحملا القارئ عبر الشرق المتناقض، الذي يبدو بالرغم من التعصب الديني عالماً مليئاً بالترف والملذات تطغى فيه العناصر المدنسة على العناصر القدسية، وان قدمت هذه العناصر للقارئ على أنها من إفرازات الدين الإسلامي.

تعد هذه النصوص خلاقة للأسطورة الشرقية من حيث أنها تغذي مخيلة القارئ الغربي بصور لعالم غير متناه لا يزال أثرها واستغلالها حتى نهاية الحقبة الاستعمارية. لقد كتبت هذه النصوص باسم الوضوح والمنطق، حتى ولو لم يكن هذا الوضوح في نهاية المطاف ليس سوى

وميض باهت، فليس لنا أن نحكم على ذلك، لكن حري بنا أن نلاحظ التطور الذي حققتــه هــذه النصوص مقارنة بنصوص الرحالة من رجال الدين الذين أشرنا إليهم سابقاً.

الرحلة الأولى: " رحلة ايطاليا ورحلة الشرق " للرحالة (فيرمانل) (Fermanel).

نشرت هذه الرحلة في العام 1630، وقد لاقت نجاحاً كبيراً، حيث أعيد طباعتها أكثر من ست مرات.

الرحلة الثانية: "مشاهدات جديدة عن الشرق " (1667) للرحالة (بولي) (Poullet).

الهدف من هاتين الرحلتين هو تثقيف القارئ وتسليته وليس تصحيح معلوماته. فهي تمثل تيار الخوف الذي وجد في تلك الحقبة تجاه كل ما يتعلق بالإسلام والمسلمين. فالكاتــب (بــولي) يطلق العنان لعاطفته، ويحث المسيحيين في الغرب أن ينتقموا لدم المسيح، وذلك بعد أن أعطــى تحليلاً موجزاً عن قوة الأتراك العسكرية، لكن يبدو لنا أن هذا النوع من النداء ليس سوى أسلوباً أدبياً دأب عليه الكاتب وغيره لإنهاء رحلته المقدسة. لقد كرست كلتا الرحلتان وحدة كاملة للديانة الإسلامية، ومن هنا يظهر لنا أن ترجمة معاني القرآن الكريم من قبل (دو ريیــر) (Du Ryer) (1647)[19] لم يكن للرحالتين علم بهما، بل كان مصدرهما هي أعمــال (بييــر لــو فينرابــل) (Pierre le Vénérable) (1092- 1156)، التي مضى عليها أكثر من 500 سنة، وما زالــت تعد مرجعاً للمثقف الغربي.

يبدو أن ليس لكل من (فيرمانل) و(بولي) أدنى فكرة عن القرآن الكــريم الــذي يســميه الأخير لازآر (Lazear)، ويضيف أن عثمان، (أودمان حسب فيرمانل)، قــام بحــذف الآيــات عديمة الفائدة من القرآن التي قد يحملها أكثر من 200 جمل حسب زعمه [20]، ولم يبــق ســوى عشر سور التي شكلت السنة. تركيبة القرآن والأصول وشخصية الرسول -عليه السلام- ودور ورقة بن نوفل ابن عم السيدة خديجة في كتابة القرآن، كل شيء كما كان وبدون جديد يذكر[21].

يقول الكاتب في هذا السياق: " والسر الكبير في ثقافة محمد الكتابية والإنجيليــة، وجــود العــالم المسيحي ورقة بن نوفل من بني أسد ابن عم السيدة خديجة، في جوار النبي، وهو الذي زوجــه ابنة عمه، فقد أجمعت الآثار على أن ورقة تنصّر، وكان يترجم التوراة والإنجيل إلى العربيــة، فهو إذن عالم مسيحي كبير وقد عاش محمد في كنفه خمسة عشر عاماً قبل مبعثه، ألا تكفي هذه المدة لنابغة العرب (محمد بن عبد الله) لكي يأخذ عنه شيئاً من علــوم التــوراة والإنجيــل؟ ... وعلى أن الوحي فتر لما توفي ورقة، وحاول محمد الانتحار مراراً لفقده وفتوره، ونجد بالمدينــة في معية النبي حاشية مسيحية ويهودية قد أسلمت أو سايرت الإسلام، نجد بلالاً الحبشي مــؤذن النبي، وصهيباً الرومي المسيحي الثري، وسلمان الفارسي المسيحي الأصل، وعبد الله بن ســلام اليهودي الوحيد الذي أسلم في المدينة مع كعب الأحبار، وهل كان حديث هذه الحاشية الكريمــة سوى التوراة والإنجيل؟ إن ذلك حجة قاطعة على أن بيئة النبي والقرآن كانت كتابية مــن كــل نواحيها، وأن ثقافة محمد والقرآن كتابية في كــل مظاهرهــا، وذلــك بمعــزل عــن الــوحي والتنزيل"(22). فماذا ننتظر من هؤلاء الرحالة، الذين يتمتعون بشيء من الثقافة ويعيدون الإنتــاج الحرفي ليس فقط لما يعتقدون أنه صحيح، لكن لما ينتظره جمهور القراء منهم؟

عندما يتحدث هذان الرحالان عن شعائر الإسلام وعن العادات والتقاليد المرتبطة مباشرة به تصبح الأمور في غاية الأهمية. في الواقع يحاول الرحالان أن يتبنيا تحليلات بعيدة كل البعــد عن الغضب والهيجان المقدس للمبشرين الذين نشروا انطباعاتهم عن الإسلام والمسلمين، فعندما ينتقدان ممارسات المسلمين وعاداتهم يحاولان ليس فقط إعطاء قيمة معينــة لهــا ولكــن أيضــاً إعطاءها توضيحات منطقية. تعود ممارسات المسلم لطقوسه الدينيــة مثــل الختــان والصــلاة والصيام والحج والمحرمات الغذائية، حسب رأي (بولي)، إلى تعصب المســلمين تجــاه ديــنهم. ويعترف انه "لا يملك القوة لصيام رمضان" (23). ويؤكد أيضاً " إن الختان أوجدتــه الخرافــات"

بسبب عيب خلقي عند الشرقيين" [24]. ويعطي تفسيراً غريباً لعدم وجود أجراس للمساجد "ليس بسبب تحريمها في القرآن، بل لصعوبة توفير المعدن اللازم لصناعتها"[25]. نلاحظ هنا اهتمام الرحالة بما تقع عليه عيناه فقط ليجد له سبباً أو مسوغاً، فكما لاحظنا فانه لا يعرف شيئاً عن العقيدة الإسلامية.

فإذا طوينا صفحات الفصل الأول التي يتكلم فيها عن الدين الإسلامي، نجد هناك عدة مجالات بحث فيها الرحالة، جميعها لها علاقة مباشرة باعتقادات المسلمين مثل السياسة والجنس. ففي جميع الأحوال لم يأت الرحالة بجديد في هذا الصدد يصحح معتقدات سابقيهم، بل اكتفوا بشرح بعض الممارسات مصحوبة بشيء من التشويق. فلكي تصبح قراءة رحلتهم أمراً ممتعا، نجدهم ينسبون كل شيء لتعاليم الإسلام.

فحاكم المسلمين "المبجل"، عند (فيرمانل)، لا يتجاوز حدود حرمه وميوله الجنسية المتطرفة، "فحتى يكون حاكماً ذا سطوة، يجب أن يكون جميع مواطنيه عبيداً وخدماً له!"[26]

سكان السرايا، وخصوصاً أولئك الذين هم تحت خدمته "يبجلونه كأنه إلهٌ، ويرتعدون خوفاً من ظله" [27]. فكيف لنا ألا نجد هنا إشارة واضحة إلى المقولة الشهيرة "الوالي هو ظل الله على الأرض" ؟

يحاول (بولي) أن يبدو أكثر دقة عندما يقول: "إن العثمانيين الأوائل كانوا يجمعون بين القوة والخرافة ليغزوا الناس على الطاعة العمياء لهم" [28]. يستمد التسلط السياسي قوته من الخرافة أي من الإسلام، ويقتات على الخوف والرعب الذي يبثه المستبد، فهذا الاستبداد يصل إلى أوجه عندما يصور السلطان زير نساء. وهنا تفتح نافذة أخرى لتدخل صورة سلبية جديدة محركة لمشاعر الخوف والكراهية للقارئ الغربي المسيحي من نظيره الشرقي المسلم.

كتب الرحالة (فيرمانل) وردد في أكثر من موقع في كتابه أن تركيا ومصر والدول الإسلامية الأخرى هي جنة الغرائز، فلقد وعد محمد أتباعه "إشباع جميع غرائزهم وبحرية مطلقة. طبيعي جداً أن يغري محمد في هذا الخطاب العرب " الذين يمتازون ببذاءتهم وقسوتهم وحبهم المفرط لإشباع غرائزهم"[29]، حتى أولئك الذين اعتنقوا دينه من الديانات الأخرى اكتسبوا هذه النقائص. يجسد هذه الرذائل الخليفة، السيد الأعظم، الذي يعيش في السرايا "حياة مليئة بالملذات والترف" والكاتب في هذا السياق يخصص باباً كاملاً لنساء الخليفة. فالعدد الكبير من الجواري لا يشبع شهوة الخليفة، فنراه يبحث عن ملذاته عند "الغلمان، والأقزام والمهرجين والصم والبكم" [30]. فالأسد رابض بانتظار إشباع غرائزه، والخدم في الحرم يعملون أقصى ما بوسعهم لتحقيق غرائزه، وهنا يظهر جلياً خيال الرحالة الخصب الذي لم يكن يتسنى له قطعياً الدخول إلى الحرم، فنراه يبالغ في وصف مساكن جواري السلطان داخل الحرم ونشاطاتهن وطقوس المنديل وما يتبع ذلك وتراجيديا الحمل، وخصوصاً هذه الخلوة الدائمة والصارمة التي لوحدها كفيلة بتأجيج خيال القارئ الغربي مهما كانت النتيجة.

فالوالي –يتابع (فيرمانيل)– الذي هو "ظل الله على الأرض" ليس الشخص الوحيد المنغمس في هذه الملذات، بل تشاركه الرعية هذه الملذات. فكل ما هو ملذة عند الوالي يصبح بقلم رحالتنا رذيلة عند العامة، "فالرجال وفق القانون يستطيعون الزواج بأكثر من امرأة، وهم لا يقصرون في ذلك"[31]. في مصر هناك المهرجان الكبير،" فالرجال لوطيون، والمخصيون يقومون بكل شيء داخل الحرم، ويقود الإخلاص والتقوى النساء إلى ممارسة مهنة البغاء، ويستقبل المسيحيون بكل حفاوة من قبل تلك النساء الجميلات، اللاتي لا يمكن للقارئ أن يتخيل جمالهن ولطفهن" [32]. بلا شك يسبب هذا الخطاب الدوار للقارئ الغربي ويدفعه بشغف لاكتشاف بابل الجديدة.

فالكاتب (فيرمانل) ليس الوحيد الذي يلصق مثل هذه الأوصاف بالمجتمع المسلم، فريشة (بولي) لم تبخل على القارئ الغربي بمثل هذه الأوصاف. فتركيا المسلمة ليست أفضل حالاً من مصر. أثناء رحلته إلى مصر يتطرق الكاتب إلى الشهوة الجنسية لدى النساء والى أنشطتهن غير السوية داخل الحرم [33] والى خيبة أملهن وقنوطهن نتيجة اتجاه الرجال إلى اللواط، فلا يخرجهن من هذه الأزمة سوى "جارية جميلة" [34] أو رجل دين "يعطيهن بركته حتى داخل أسرهن" [35]، كل ذلك ليس مثيراً للغرابة في مجتمع يحكمه دين يحلل تعدد الزوجات والإماء" [36]، فالإسلام هو المسؤول الأول والأخير عن هذه الفوضى.

هكذا رأينا كيف رسم الرحالتان للقارئ الغربي لوحة زاهية الألوان؛ فالعناصر المكونة لهذه اللوحة هي حسب مذاقه، حيث الثراء الفاحش والرذائل المخيفة، ويشارك في ذلك السلطة نفسها وبمباركة رسول الإسلام. فرجل الدين المسيحي يهتز كيانه من مثل هذه البشاعات ويتذكر الشيطان الرجيم. فهكذا نجد أن الرحالة يعطي للقارئ الغربي العنوان الصحيح وهو رجل الدين ويتركون له العنان لتصور ذلك المشهد.

أما الآن فسوف نعرج على رحلة أكثر جدية، من ناحية أن كاتبها لن يطلق العنان لمخيلته لوصف الأشياء التي لم يرها، بل انه يحاول بنوع من "الصدق" وبسذاجة غير مسبوقة أن يظهر لقارئه واقع البلد الذي زاره، وحقيقة الدين الذي كتب عنه وقيل فيه الكثير من الأساطير والخرافات. انه الرحالة (تيفنو) (Thévenot) الذي فتح عينيه على المجتمع الإسلامي، الذي شده ودفعه لمعرفة المزيد عنه، وأعطى رأيه فيه في رحلته الشهيرة (رحلة إلى بلاد الشام) [37] (La relation d'un voyage fait au Levant) (1664) والتي هي الجزء الأول من ثلاثة أجزاء، والتي لم ينشر منها سوى الجزء الأول خلال حياته. في هذا الجزء نلاحظ أن الكاتب أكثر من ملاحظاته حول الإسلام والمسلمين وخصوصاً في القسم المتعلق بتركيا. كيف امتص

هذا الرحالة الذي يعد من العاشقين للاستشراق الصدمة الثقافية وكيف عالجها منذ الصفحة الأولى من كتابه؟ هذا ما سوف نحاول الإجابة عنه.

أكثر شيء يستحق الوصف في القسطنطينية- حسب رأي (تيفنو)- هي السرايا التي يمكن مشاهدتها من البسفور. إنها بوابة الدخول للعالم الإسلامي وهي قلبه النابض. لكن بما أن الدخول إليها محرم على الرحالة الغربيين، فان ما في داخلها يبقى غامضاً ومثيراً للفضول. هذه الأسرار التي يستعصي على (تيفنو) اكتشافها والاطلاع عليها، يتركها للقارئ الغربي كي يتخيل فحواها.

يبدأ الرحالة بوصف خارج السرايا، حيث توجد نافورة على مقربة منها "كان السيد الوالي يقطع رؤوس الباشاوات والرجال ذوي الجاه عندها" (38). وحول هذا الموضوع نجد شرحاً مطولاً مخصصاً للمخصيين ولنساء الحرم، فلا يهم الرحالة أن السرايا قصر كبير، بل يهمه أن في إحدى غرف هذا القصر الكبير "تتكدس نساء الوالي، تحت رقابة المخصيين" (39) لحمايتهن من أنظار الغرباء. هذه الغيرة عليهن من قبل الوالي تمتد حتى بعد وفاته، فأرامله لا يجدن حريتهن، بل ينقلن إلى السرايا القديمة لقضاء بقية حياتهن هناك، تحت حراسة مشددة وكأن الوالي ما زال على قيد الحياة.

إذن تمثل السرايا الحصن المنيع لحكم مستبد يقطع الرؤوس ويقتل الأنوثة، كما رأينا سابقاً. فالأتراك، حسب رأي (تيفنو)، "جهلة ولوطيون" (40)، وليسوا رجالاً حقيقيين، وهي -أي السرايا- "المكان الذي تضيع فيه النساء منذ لحظة دخولهن إليها، ويصبحن تعيسات وينجرفن خلف الرذيلة"(41). هذا الواقع يصوغه الإسلام. فإذا كان السلطان يقطع الرؤوس، فذلك؛ لأن "رعيته تطيعه بلا تفكير" (42)؛ لأن عليهم واجب طاعة "أمير المؤمنين، الذي هو ظل الله على الأرض". وإذا كانت رعيته جاهلة، فذلك؛ لأنها تكتفي بتعلم القرآن وقراءته وكتابته ودراسته"(43). أما علاقة الأتراك بالجنس فان الرحالة يعطيه التفسير التالي:

"لا يعتقد الأتراك أن النساء يدخلن الجنة. بالكاد يعدوهن كالحيوانات المطيعة. فهم لا يعيروهن اهتماماً إلا لخدمتهم، شأنهن بذلك شأن الخيول، ولكن بما أن عندهم الكثير منهن، فانهم يقتنوهن لأغراض الجنس فقط. عندما يجدن هؤلاء النساء المسكينات أنفسهن متروكات بلا اهتمام، فإنهن يعملن جاهدات ليحققن شهواتهن التي يصعب تحقيقها مع أزواجهن، وهذا يفسر سبب غيرة رجالهن"(44).

إذا اعتبرنا أن السلطان يجمع السلطات كافة في شخصه، فان السرايا هي دون أدنى شك قلب الإسلام. لنتوقف قليلاً عند هذه النقطة من تحليلنا ولنتطرق إلى نقطة أخرى في غاية الأهمية، وهي أن الرحالة (تيفنو) لا يفتأ يشير إلى أن الدافع وراء كتابة هذه الرحلة هو التوضيح، وأنه يرفض الحديث عن الأشياء التي تشد القارئ؛ لذا نجده يرفض الحديث عن خبايا السرايا وأسرارها: "هذه السرايا غير مسموح دخولها إلا لمن هم مدعوون إليها، وبما أنني لم أدع لدخولها، فإنني أعتذر عن الحديث عنها، بالرغم من كل الأسرار التي تلفها"(45).

صحيح أنه لم يتكلم عن الأشياء التي لم يرها، لكنه يعطي تفسيراً وتوضيحاً لكل ما يراه، حيث لا يجد القارئ نفسه أمام أحداث لا يفهمها لديانة غريبة، لكن أمام آلية محكمة لمجتمع تحركه ديانة مختلفة. هذه القناعة المنطقية تحكم في هذا السياق رؤية الآخر وكأنها انعكاس للأنا أو للذات، انعكاس مشوه طبعاً، ومعرفته سهلة رغم كل شيء. حاول (تيفنو) بأسلوب المقارنة، استنتاج أن الأتراك هم أكثر إحسانا وأكثر إنفاقا في سبيل الله من الغربيين وأن "صيامهم أصعب من صيامنا" وان "الخزعبلات سائدة في كلا المجتمعين" (46).هنا يتطرق الكاتب إلى أوجه الشبه والخلاف وهذا الأمر ليس مألوفاً؛ لأنه يظهر الآخر كشبيه أو كشخص مزدوج. يطبق (تيفنو) هذا الاستنتاج بوضوح وخصوصاً عندما يقول:

"يعتقد كثير من المسيحيين أن الأتراك شياطين، وبرابرة وأناس بلا إيمان، ولكن يتولد شعور مختلف لدى كل من رآهم وتحدث إليهم، لأنهم حقاً أناس طيبون" (47).

هذا الاستنتاج غير مسبوق ولا نجده في مكان آخر في كتب الرحالة في تلك الحقبة، ويؤسس لمفردات نقائص وحسنات الأتراك. من خصالهم الحميدة: الصدق والذي يظهر من خلال طقوسهم الدينية. انهم محسنون ولا يحبون الشجار والجدل ومتسامحون مع من يعتدي عليهم. ومع ذلك يشير (تيفنو) إلى جهلهم وكسلهم. قائمة الصفات الحميدة هي أطول من تلك السيئة، والتي أي الأخيرة في الأحوال جميعها تبقى إنسانية وليس لها أية علاقة بالشيطان.

من الآن فصاعداً، يجب على كل رحالة يجعل من الآخر شخصاً غريباً، أن يعطي مصوغاته، وهذه المصوغات ترد دائماً إلى الإسلام. لكن لا يجب مواجهة القارئ مباشرة بمثل هذه الأفكار الجديدة؛ لذا يحاول (تيفنو) أخذ الاحتياطات اللازمة والقارئ مستهلاً شرحه بالكلمات التالية:

" لا شك إن ديانة الأتراك مليئة بالحماقات والأشياء اللامنطقية التي تثير الدهشة، لكنها ما زالت تستقطب الناس الذين لو يجيدوا الاستماع فان من السهل تحويلهم عن هذا الإيمان القاسي، لكنهم لا يريدون الاستماع إلى الآخرين لأن هذا الأمر يثير إعجابهم" (48).

في هذا السياق يضع الكاتب معادلة متناسقة تقوم على أن الديانة الإسلامية غير منطقية، لكنها ساحرة. هكذا يبدو أن الرحالة يريد أن يحمي نفسه من جاذبية الآخر، ومن نقاط التشابه الكثيرة، فإذا لم يعد الآخر هو الآخر، فأنا من أكون؟ هكذا يعود الكاتب إلى طبيعته عندما يتحدث عن كره الأتراك للقطط (49).

لكن يناقض الرحالة نفسه عندما يتحدث لاحقاً عن طباع الأتراك. فلا ينبغي ارجاع هذا التناقض الى الدوار الذي أصاب الكاتب؛ لأنه وفي خضم هذا الدوار الذي يشده نحو الآخر، يشعر بالحاجة لاثبات هويته واختلافاته من خلال اللجوء إلى الصور السلبية الأكثر شيوعاً في

الغرب. مثل هذه الصور تظهر بشكل خاص عندما يتحدث الكاتب عن القرآن الكـريم: "المليء بالخرافات والحماقات المأخوذة عن رجال الدين اليهود"[50] وعندما يتحدث عن الجنة التي يقـول المسلمون فيها " آلاف الحماقات" [51]. هذه الأمور لا بد من الإشارة إليها والتأكيد عليها قبـل أن ينتقل الكاتب إلى أشياء أخرى.

هذه الأشياء الأخرى ليست سوى تمثيلات واضحة ومعروفة للديانة الإسلامية. فلا يغفـل الكاتب عن كل ما هو مهم، مستخدماً أسلوب المقارنة بين الإسلام والمسيحية لتعريـف القـارئ بها. من هذا المنظور، يقول الكاتب: "يعترف المسلمون كما المسيحيون بإلـه واحـد ويمجـدون المسيح ومريم العذراء"[52]. ويمارسون الصيام "الذي يكـبح الشـهوات ويطهـر الـروح"[53]، ويحترمون أوامر الله وتعاليمه، بل هم أفضل من المسيحيين؛ لأنهم "أكثر إنفاقـا فـي سـبيل الله فقليلاً ما نرى متسولاً في مجتمعاتهم" [54]. ويبجلون الله، "فمجرد أن يسـمع اسـمه، يظهـرون تجاهه خضوعاً وخشوعاً منقطع النظير"[55]، وهم "أتقياء، لدرجة أنهـم يلقنوننـا دروسـاً فـي التقوى"[56]. و"دقيقين وصارمين في صيامهم، الذي هو أصعب بكثير من صيامنا"[57]. ويعفـون ويسمحون عن أعدائهم بمناسبة حلول عيد الأضحى؛ "لأنهم يعتقـدون أن الله لـن يتقبـل مـنهم قرابينهم إذا كان في قلوبهم ذرة من حقد"[58]. ويظهرون تسامحاً في الأماكن التي تقطنها أغلبيـة مسيحية، ويتركون المراسم الدينية تتم "بحرية مطلقة"[59]. ويتمتعون بأمانة مطلقـة، فالحمامـات أماكن "للحرية والسكينة، كما لو كانت مقدسة، فلا يقترفون فيها شيئاً مـن الخبائـث"[60]. هكـذا وتحت شعار الاستقامة والاحترام، يدرج لنا الكاتب كل هذه الملاحظات: احترام الإلـه واحتـرام الآخر.

الجنة، دار النعيم، هي أيضاً موضوع اختلاف، فلم يخصص لها الكاتب (تيفنـو) سـوى وصفاً مختصراً، وجه فيه القارئ إلى الكتاب السابقين الذين أعطوها وصفاً مطولاً. فكل ما يهمه

هو أن يوضح أن الملذات التي وعدها محمد لأتباعه هي "لأسباب مناخية مخفية في بلاد مياهها شحيحة، فمن الروعة أن يتخيل المرء عيونا متدفقةً لا تجف ولا تنضب وحدائق غاية في الجمال. والحال ذاته، فإذا كان أصحاب محمد يلبسون في الجنة اللباس الأخضر، فذلك لأن محمداً كان يحب اللون الأخضر. وإذا كانت الحوريات عيونهن سوداوات ووجناتهن وردية، فذلك لأن المسلم يعشق هذا النوع من الجمال، فمحمد العارف بطبيعتهم الغيورة وحبهم للملذات وعدهم جنة تستجيب لغرائزهم"(61).

رؤية المسلمين للملائكة مختلفة أيضا، يقول الكاتب: "فملائكتهم أكثر عدداً من ملائكتنا"(62)، ودورها أكثر فاعلية في الحياة اليومية. ويحاول الكاتب أن يفسر العادة التي يتبعها الأتراك عندما يذهبون إلى الخلاء: فهم "يضعون أولاً قدمهم اليسرى، حتى يستطيع الملك الذي يكتب سيئاتهم أن يتركهم أولاً"(63)، ويفسر وجود غرة طويلة في مقدمة الرأس "ليعطوا للملائكة ممسكاً حتى يجعلونهم يسجدون"(64). هكذا تترجم العادات وفق الاعتقادات التي تنتمي إلى الإطار الكبير الذي هو الدين لتصبح مفهومة أو حتى منطقية. ينطبق هذا الاستنتاج على الصلاة تحديداً، التي سخر منها وانتقدها جميع الرحالة. فالرحالة (تيفنو) أعطى لها وصفاً في غاية الأهمية، " فهي -أي الصلاة- سمة الجدية والاحترام"(65). كل حركة، بدءاً بالوضوء وانتهاءاً بالسجود الأخير، لها علاقة بمعنى ديني معين، وسيأخذ من الآن فصاعدا معنىً واضحاً ومفهوماً، ولن يتأخر الرحالة اللاحقون عن وصفها.

كيف يمكن في مثل هذه الظروف أن لا نحتفظ بالشفقة والاحتقار لهذا الأجنبي الذي لا يفصلنا شيء عنه سوى محمد والقرآن؟ هنا وبدون أدنى شك يكمن مصدر أخطائه، فهل هذه الأخطاء ناجمة عن التفسيرات الخاطئة للديانة المسيحية؟ "فمحمد رجل أمي، يقول الرحالة، تلقى العون من ورقة بن نوفل، وتتلمذ على يدي الراهب النسطوري سرجيوس بحيرا، فالقرآن ليس

إلا نسخة عن التوراة والإنجيل مليئة بالأخطاء "[66]. نصل هنا إلى استنتاج مفاده : "إذا أراد المسلمون الخروج من تيههم وضلالهم، فسيكونون مسيحيين أفضل منا". لا يستطيع (تيفنو)، كونه مسيحياً متعصباً، الإعلان الصريح عن هذا الاستنتاج؛ لكننا سنرى أن التصريح بمثل هذا الأمر لن يخيف المسيحي المنفتح على الآخر في العصور اللاحقة.

3.الإسلام من الأسطورة إلى المنطق والعقلانية:

رأينا سابقاً كيف استجابت الصور التي رسمها وتناقلها الرحالة الفرنسيون للإسلام وللشرقي- في مجملها- في النصف الثاني من القرن السابع عشر، إلى توجيهات واهتمامات العصر وخصوصاً فيما يتعلق باستخدام العقل والمنطق؛ مما سمح بالتفريق بين الإنتاج المنطقي لهذه الصورة وبين الإنتاج المرتبط بعالم الأسطورة.

كان أدب الرحلات في القرون الوسطى والقرن السادس عشر بعيداً كل البعد عن المنطق، فلا نجد فيه إلا كل ما لا يصدق. أظهرت دراسة للكاتبه (كلير كابلير) (Claire Kappler) في كتابها (وحوش، وشياطين وعجائب) (Monstres, démons et merveilles) (1988) [67] التي عالجت فيه مجموعة كتب، رأت النور في نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر، وحملت عنواناً مشتركاً(وصف العالم) (Description du Monde). تظهر غالبية هذه الكتب العالم كمحمية شاسعة مبهمة، أوجدتها الطبيعة ويتعايش فيها أصناف في غاية الغرابة. لا يدعي كتاب هذه الرحلات وصف ما تقع عليه عيونهم وصفاً منطقياً، لكن الكفالة في مصداقية ما ينقلونه للقارئ خبرتهم الشخصية. فالنباتات والحيوانات والناس غريبي الأطوار إثبات حي على عظمة الإله، وكأن قدرة الله تظهر في الأشياء القبيحة أكثر منها في الأشياء الجميلة؛ فليس هناك أي حاجة لاثبات ذلك بالمنطق والتوضيح وإبداء الأسباب، فوجود

هذه الأشياء سبب كاف، ويكفي الرحالة أن يكرر بعض العبارات مثل "رأيت"، "شاهدت" "سمعت" التي تجمع، وبدون تعليق يذكر، سكان المناطق التي زارها وكل ما هو جميل أو قبيح. كتاب هذه الرحلات لا يستثنون العالم الإسلامي من مثل هذه الأوصاف التي نجدها وبكثرة في كتاب (رحلة الى الأرض المجهولة) (Terra incognita). يشرح الرحالة للقارئ في هذه الرحلات عادات وممارسات السكان الشرقيين التي سببت لهم الصدمة، وبدت لهم ذات طابع خاص. فهم لا يرون الإسلام إلا من خلال صور وعادات مفصولة عن واقعها الثقافي. ومن يريد المزيد من هذه الشروحات للعادات الفريدة لسكان البلاد التي زارها الرحالة، ليس عليه إلا أن يقرأ كتب علامة القرن السادس عشر. فكل ما يهم كتاب هذه الرحلات هو رسم الدهشة على وجوه قراء رحلاتهم.

نذكر في هذا السياق كتاب (رحلة إلى مصر) عام 1553 للرحاله (بلون دي مان) (68) الذي ادعى أن الفضول وحب المعرفة هما عنوان هذا الكتاب الذي يعطي قائمة طويلة لكل ما تحتويه مصر من أشياء غريبة، وخصوصاً في مجال النبات والحيوان. جمع الكاتب (1518 – 1564) الذي كان طبيباً بيطرياً وعالماً في العلوم الطبيعية، في كتابه بين " الزرافة والجمال والأفاعي ذات الأجنحة والشجرة التي تحمل الصوف" (69). فبالرغم من أن كاتب هذه الرحلة عالم، إلا أنه لا يتمتع بأدنى منطق، فهو يأتي على ذكر الأشياء الغريبة لأن من الصعب على القارئ التأكد من صحتها.

لكن يبدو الأمر مختلفاً بالنسبة لكتاب الرحلة في القرن السابع عشر الذين جمعوا بين الواقع التاريخي والسياسي والجغرافي للبلد الذي زاروه، وعلاقة ذلك بعادات السكان ودياناتهم. فغياب الديانة عن الرحلة أمر نادر جداً.

عندما نتوغل تدريجياً في سنوات القرن السابع عشر، نلاحظ وجود ظاهرة لافتة للنظر لدى الرحالة تقوم، على حد قولهم، على إعطاء شروح "منطقية" مطولة "للانحرافات" المتعددة

للديانة الإسلامية، فلم يعد كافياً إظهارها بل يجب على الرحالة توضيحها. يمكن رد هذه الظاهرة إلى شغف العصر بالموسوعات العلمية وبالمعاجم، ونجدها مجسدة وبشكل متفاوت في كتب الرحالة في النصف الثاني من القرن السابع عشر.

لقد أظهر الجزء الأول من هذا البحث قلة إسهاب حجاج الأرض المقدسة بالحديث عن خصوصية الديانة الإسلامية. لقد كانوا يفضلون الانتقال بين الأماكن التي لا وجود للمسلمين فيها حتى لا تتكدر عيونهم برؤيتهم. فالفرص التي كانت تجمعهم والمسلمين في هذه النصوص قليلة ومتأثرة بشكل كبير بعقلية العصور الوسطى، وتستوحي إلهامها بالسير على خطى المسيح. من هذا المنظور، تقتصر رؤية الإسلام على صور مقولبة وضرورية أغلبها منقول عن كتب أخرى.

لقد كان المبشرون أكثر واقعية ممن سبقوهم لشعورهم بالحاجة لفهم الديانة الإسلامية وإفهامها للقارئ. فلم يكتفوا بتدوين انطباعاتهم كالرحالة- الحجاج، بل على العكس من ذلك حاولوا أن يقاربوا بشكل منطقي بين الديانتين (الإسلام والمسيحية) لأن الهدف من معظم كتب الرحالة-المبشرين، حث القارئ على تقديم الدعم المادي للحملات التبشيرية.

لكن لا يعني شرح عادات المسلمين ومعتقداتهم أنها منطقية، بل إن الطريقة المستخدمة لفهمها وتحليلها تظهر عدم منطقيتها. فبعض الكتاب يتباهى بعقلانية تحليلاته الشخصية حتى يفضح الإسلام وممارساته. فقد أصدر الحكم باسم العقل والمنطق على الديانة الإسلامية، أنها غير مقبولة، بينما صدر هذا الحكم سابقاً في العصور الوسطى باسم الرب. فلا يهمنا غياب الرب عن عقلية القرن السابع عشر؛ لأنه ليس من المؤكد أن المنطق والعقلانية تدعمان وتقويان إيمان القارئ. من هذا المنظور، تجد التأكيدات المتكررة التي يطلقها الرحالة على مدار الرحلة من أنه شاهد وقرأ وفهم كل شيء، آذاناً صاغية وتصبح لغة من الصعب جداً رفضها أو وضعها

على المحك. تظهر لهجة هذا الخطاب وكأنها صادقة. يعطي الوجه الآخر للخطاب المنطقي، لمحمد ولأتباعه فضائل قبل أن يدحضها عن طريق فضح العيوب التي تملأ ديانتهم. يظهر الكاتب هذه الفضائل وكأنها واقعية لا يستطيع الشخص أن يتجاهلها، لكنه يستخدم المنطق نفسه الذي أستخدمه لمعرفة هذه الفضائل؛ لدحضها وقلبها رأسًا على عقب. هكذا فإن بإمكان كتب الرحلة أن تردد وعلى جميع الألحان أن المسلمين أكثر تديناً من المسيحيين أو أكثر صدقاً منهم . لأن هذا الواقع لا يشكل خطراً على الديانة المسيحية الحقيقية التي تعترف بفضائل أعدائها الحقيقيين وهذا ضمان وكفالة لصدق وصحة النقد الذي سرعان ما يقلب الأمور رأساً على عقب ويحطم الصورة الإيجابية للإسلام. هكذا تخرج الديانة المسيحية رابحة دائماً، بل وأكبر مما كانت عليه، فالرحالة ينقلنا بهذا الأسلوب من الصراع إلى الخداع الدبلوماسي. تعيد النصوص التي بحوزتنا صياغة الصور الأسطورية القديمة المتشنجة، بأبعاد غير الصالح منها وغير المنطقي للتأكيد على صحتها أكثر من الآخرين.

وأخيراً يمكن القول أن أسطورة الإسلام اختلطت باسم المنطق مع أسطورة الشرق المعروفة اليوم. لا يستطيع هذا الشرق المليء بالتجاوزات بسبب سكانه والديانة التي يعتنقونها التخلص من رذائله الطبيعية إلا بتدخل الغرب، الذي سيقيم فيه، ولمصلحة الجميع، مبدأ المنطق والمسيحية. سيحضر هذا الاستنتاج لفكرة الاستعمار التي ما إن طرحت، أخذت مكان الحروب الصليبية [70]. نجد تجسيداً للكلام الذي أسلفناه في كتاب "رحلة في الإمبراطورية المغربية"، والذي سوف ننقله بالرغم من طوله:

" إن البلاد التي يديرها الكفار الخشنون، غليظو الطباع والجهلة الذين لا يهتمون إلا بدراسة قرآنهم ولا يعرفون أهمية العلوم الأخرى، ينبغي أن تكون بأيدي المسيحيين الذين يعرفون كيف سيديرون هذه البلاد الزاهية الجميلة، بفضل موقعها وجمالها ونقاوة مناخها المعتدل

وخصب تربتها ونوعية سكانها الأصحاء والأقوياء، وعذوبة وصفاء مياهها وخصب مراعيها وأراضيها التي تنتج من ذاتها بدون زراعة (...) وبعد أن شعرت بالحزن والأسى بمشاهدة هذا الكنز الوفير يهرب إلى مركز الكسل والجهل واللاإنسانية، سوف أبدأ بوصف مميز لعدالة الأمير"[71].

يظهر في هذا النص بوضوح موضوع جنة عدن، وأن المغرب الطبيعي هو جنة الله على الأرض: جمال وخصوبة وصفات جسدية للسكان. ساهم هذا الأسلوب، الذي يشبه إلى حد كبير أسلوب روسو، في جعل هذا البلد مكاناً عذرياً ونقياً وغنياً منذ الأزل. لكن تسيطر على هذا الشرق الأسطوري، الذي تتداخل تمثيلاته مع تمثيلات آسيا، ديانة تشيع الجهل وتكره الناس على الدخول فيها، وهذا بحد ذاته أكبر الكبائر ومخالف لتعاليم الإنجيل. لذا من الأفضل أن يكون هذا الشرق غير المنطقي تحت سيطرة الغرب المسيحي، الذي يعمل أهله بجد وعقلانية، فهم فقط القادرون على جعله أكثر إنتاجاً. لقد أدخل هذا الخطاب، منذ القرن السابع عشر، مفاهيم ستأخذ أبعاداً أخرى وستتطور بشكل قاطع في العصور اللاحقة لتأخذ مقولة: سنستعمر قسماً من بلاد المسلمين؛ لنعلمهم المنطق الذي ينقصهم.

ها نحن في نهاية الطريق التي سلكها الحجاج والتجار والمبشرون ورجال العلم وجهابذته من طرق فرنسا المتعددة إلى طرق إمبراطورية الشمس. هذه الطرق هي التي رسمت خط سير أفقي للخرافة التي أخذت تدريجياً شكل الأسطورة.

إذا كانت محاولتنا على مدار هذا البحث فهم صورة معينة، أليس من المبالغ فيه أن نعطيها مسمى أسطورة؟ لقد رسمت العصور الوسطى صورة خرافية وخيالية ومخيفة للإسلام تختلط مع فكر الإرهاب الذي ينادى به اليوم. أما في النصف الثاني من القرن السابع عشر، فقد لاحظنا وبالعكس، تشكل خطاب يعتمد على واقع لا يمكن إنكاره، وهي خبرة الرحالة التي

أسهمت في نشر هذه الصورة الخيالية والخرافية للإسلام وبث ثقافة الخوف منه. يعبر الرحالة الذين تم اختارهم عن نمط تفكير مجتمعاتهم وعن الرغبات الكامنة بها. فالخطاب الذي استخدموه هو نتاج الثقافة المهيمنة على عصرهم. إن تكرار نفس الموضوعات المقولبة يوضح بجلاء المكانة التي تحتلها في النظام الفكري الذي تنتمي إليه والذي يوصل تكرار بعضاً منها إلى درجة الهوس. فالواقع الذي يراقبونه، لا يساعد على تمثيل الواقع الذي ينشدونه. هذا الواقع منقسم بين الخصائص الأساسية لمجتمع "إرهابي" مليء بالتناقضات الدينية من جهة، وبين الأحلام الغربية والقوانين المتزمتة للعقل، والرغبة في اكتشاف العالم الآخر والتعرف عليه من جهة أخرى. هذه الاهتمامات المتناقضة التي تظهر في التفسيرات الغامضة التي يعطيها الكتاب للإسلام، تعطيهم ذريعة لجعل الآخر-"المحمدي" أسطورة.

ينتهي بنا المطاف إلى تناقض آخر مصدره افتتان الفرنسيين بسحر الحضارة الإسلامية والشرقية من جهة، ورفضهم الواضح لها من جهة أخرى. لقد استنزفت الحضارة الإسلامية والشرقية منذ الإمبراطورية البيزنطية الغابرة أحلام اغتراب الغربيين، وجاء الإسلام ليضاف إلى واقع تاريخي غني بالمعاني. فيعرف إنسان القرن السابع عشر أن الشرق فاتن، لكن بشكل يمكنه تقبله، وكما رسمته ريشة الرحالة في العصور الوسطى وعصر النهضة. فكل ما يريده القارئ هو التأكيد على ما جاء في كتب هؤلاء الرحالة. فلقد بلورت الحضارة الإسلامية، بفضل جوانبها الشهوانية نداءً نحو قارة أو وجهة أكثر دفئاً وأكثر زهواً من الواقع اليومي الروتيني للغربي. لكن لا يصل الأمر إلى درجة الاعتراف بإخلاص "المحمدي" المغيب عن هذا المشهد الجديد، حتى لا يصبح شخصاً مثالياً يصعب على المسيحي العادي أن يصل إلى هذا الحد من الكمال.

أما فيما يتعلق برفض الديانة الإسلامية فإن الرفض يأتي من العنف الفكري للكتاب الغربيين الذين رفضوا الديانة الإسلامية منذ ظهورها، وليواجهوا خطر فقدان الهوية إذا اعترفوا مطلقاً بالآخر كند لهم. يرفض العصر الكلاسيكي، الذي كان مشغولاً وبقوة في تعريف تركيباته الدينية والسياسية، مجرد الشك بقيمه الذاتية أمام قيم الآخر، بل وعلى العكس من ذلك فإنه ينهل من قيم هذا الأخير لتأكيد قناعاته. تكمن أهمية الحضارة الإسلامية الشرقية في أنها تعكس صورة الرحالة الذي يدّعي الصدق، ويكتشف بسرور مفرط صفاته الحميدة مقارنة مع صفات الشرقي المليئة بالنقائص. فالكراهية التي يكنها "المحمدي" للمسيحي ضمان كاف على صدق الأخير وصحة ديانته والتي يصمت في بحرها الرحالة. في الواقع، نجد أنفسنا أمام أسطورة ظهرت تحديداً منذ مطلع السنوات 1670، أنتجتها أحلام ومخاوف الحضارة الغربية لطمأنة أتباعها على قيمها الذاتية. ستصبح هذه الأسطورة قوية ومتماسكة بما فيه الكفاية لتحتوي كل ما يمكن أن يتخيله ويفكر به المواطن الفرنسي والغربي في القرنين الثامن والتاسع عشر في رؤيته للإسلام. ولها وبدون أدنى شك أسباب أيديولوجية والتي أعطت منذ القرن التاسع عشر شرعية للغرب لبسط هيمنته على هذا الجزء من الكرة الأرضية. فلقد شكلت حملة بونابرت على مصر نقطة بداية الإمبريالية الغربية [72] التي تتراوح بين عقلية عصر التنوير وعقلية التوسع، فالاهتمام بالآثار المصرية ولد في العربات العسكرية لبونابرت وشكل بدايات الاستشراق. كان مبرر السيطرة والسطوة "تحرير الشعوب النائمة" بواسطة العلم. يمر بعث الشعوب، من وجهة نظر علماء التنوير ومن ثم الثوريين، من خلال تحريرها ليس فقط من نير الحكم المتسلط بل وكذلك من "قيود الانتماء الديني". هذه الأفكار التي طبقت بادئ ذي بدء على تاريخ فرنسا، صُدرت نحو مصر عن طريق الرحالة (فولني) (Volney) [73]. لذا فان إعادة بعث شعوب الشرق يجب أن يمر عن طريق تغييرات سياسية وفكرية عميقة ويتطلب إنشاء دولة يحكمها

العقل النير. من هذا المنظور، قدم غزو مصر كأنه تحرير للمصريين من طغاتهم المماليك والأتراك.

هوامش البحث:

1. أنظر:

Précis de Littérature comparée, Paris ; PUF, 1989

وخاصة الدراسة النظرية عن الصورية للكاتب:

هنري باجو: "الصورية"، ترجمة الزهراني معجب، نواف>، العدد 2 ، جده: نادي الأديب الثقافي، ص 133-160.

2. انظر الدراسات التالية التي تدور حول "فكر الإختلاف":

- تودوروف: نحن والآخرون، دمشق، 1999.

- إدوارد سعيد: الاستشراق: المعرفة، السلطة، الانشاء، نقله الى العربية: كمال أبو ديب، الطبعة الأولى، بيروت، مؤسسة الأبحاث العربية، 1981، 368 صفحة.

- إدوارد سعيد: الثقافة والإمبريالية، نقله إلى العربية وقدَّم له: كمال أبو ديب، الطبعة الثانية، بيروت دار الآداب، 1998.

3. أنظر: ريتشارد سوذرن :صورة الإسلام في أوروبا في العصور الوسطى، ترجمة وتقديم: رضوان السيد، بيروت، معهد الإنماء العربي، 1984.

4.أنظر: إدوارد سعيد :الثقافة والإمبريالية، نقله إلى العربية وقدَّم له: كمال أبو ديب، الطبعة الثانية، بيروت دار الآداب، 1998.

5. Surius, Bernardin, Le pieux Pèlerin, ou Voyage de Jérusalem, Bruxelles, Fopperis, 1666.

6. Goujon, Jacques, Histoire et Voyage de la Terre-Sainte,, Lyon, P. compagnon, 1671.
7. Beaugrand, Félix, Relation nouvelle et très fidèle de la Terre-Sainte, Paris, A. Warin, 1700.

8. أنظر:

- زكرياء هاشم زكرياء: المستشرقون والإسلام، القاهرة، 1965.

- محمد شامة: الإسلام في الفكر الأوروبي، القاهرة، مكتبة وهبة، فبراير 1980م.

- محمد قطب: المستشرقون والإسلام، القاهرة، دار وهبة، 1999م.

9. Goujon, Jacques, Histoire et Voyage de la Terre-Sainte, op.cit., p.12.
10. Beaugrand, Félix, Relation nouvelle et très fidèle de la Terre-Sainte, op.cit., p. 99.
11. Goujon, Jacques, Histoire et Voyage de la Terre-Sainte, op.cit., p.181.12. Beaugrand, Félix, Relation nouvelle et très fidèle de la Terre-Sainte, op.cit., p. 80.

13. نفس المصدر، ص 160.

14. نفس المصدر، ص 490.

15. Surius, Bernardin, op. cit., pp. 160-253.

16. نفس المصدر، ص 186-187.

17. Fermanel, Le voyage d'Italie et du Levant, Rouen, J. Herault, 1664.
18. Docteur Poullet, Nouvelles Relations de Levant, Paris, L. Billaine, 1667.
19. Du Ryer, Pierre, L'Alcoran de Mahomet, translaté d'arabe en français par le Sieur Du Ryer, Amsterdam, 1647.
20. Fermanel, op.cit., p. 279.

21. أنظر:- محمود ماضي: الوحي القرآني في المنظور الاستشراقي ونقده، الطبعة الأولى، الإسكندرية، دار الدعوة، 1996.

- محمد البنداق: المستشرقون والقرآن الكريم، بيروت، دار الآفاق الجديدة، 1983م.

22. Fermanel, op.cit., p. 290.
23. Poullet, op.cit., p. 278.

24. نفس المصدر، ص 292.

25. نفس المصدر، ص 294.

26. Fermanel, op.cit., p. 126.

27. نفس المصدر، ص 90.

28. Poullet, op.cit., p. 299.
29. Fermanel, op.cit., p. 141.

30. نفس المصدر، ص 90.

31. نفس المصدر، ص 156.

32. نفس المصدر، ص 439.

33. نفس المصدر، ص 121.

34. نفس المصدر، ص 83.

35. نفس المصدر، ص 193.

36. نفس المصدر، ص 284-285.

37. Thévenot, La relation d'un voyage fait au Levant, Paris, Biltaine, 1664.

38. نفس المصدر، ص 123.

39. نفس المصدر، ص 123.

40. نفس المصدر، ص 130-131.

41. نفس المصدر، ص 125.
42. نفس المصدر، ص 129.
43. نفس المصدر، ص 131.
44. نفس المصدر، ص 125.
45. نفس المصدر، ص 95.
46. نفس المصدر، ص 128.
47. نفس المصدر، ص 128.
48. نفس المصدر، ص 88.
49. نفس المصدر، ص 117.
50. نفس المصدر، ص 98.
51. نفس المصدر، ص 90.
52. نفس المصدر، ص 90.
53. نفس المصدر، ص 100.
54. نفس المصدر، ص 113.
55. نفس المصدر، ص 100.
56. نفس المصدر، ص 112.
57. نفس المصدر، ص 102.
58. نفس المصدر، ص 104.
59. نفس المصدر، ص 114.
60. نفس المصدر، ص 74.

61. نفس المصدر، ص 93-95.

62. نفس المصدر، ص 92.

63. نفس المصدر، ص 92.

64. نفس المصدر، ص 92.

65. نفس المصدر، ص 110-111.

66. نفس المصدر، ص 88-89.

67. Kappler, Claire, Monstres, démons et merveilles à la fin du Moyen Age, Paris, Payot, 1988.

68. Du Mans, Pierre, Voyage en Egypte, Paris, 1553.

69. نفس المصدر، ص 217.

70. أنظر: محمد إبراهيم الفيومي :الاستشراق رسالة استعمار، القاهرة، دار الفكر العربي، 2000.

71. Pidou de Saint-Olon, François, La relation de l'empire de Maroc, Paris, Neuve Mabre Cramoisy , 1695, pp. 37-39.

72.هنري لورنس: الأصول الفكرية للحملة الفرنسية على مصر: الاستشراق المتأسلم في فرنسا (1698-1798)، القاهرة، دار شرقيات للنشر والتوزيع، 1999.

73. Constantin-François Volney, Voyage en Egypte et en Syrie, Bossange Frères, Libraires, 1822.